نفحـــة من العبقرية

[في الذكرى الثانية عشرة للرافعي]

للأستاذ أحمد مصطفى حافظ

« . وسيأتي يوم إذا ذكر فيه الرافعي قال الناس : هو الحكمة العالية مصوغة في أجمل قالب من البيان » مصطفى كامل

المرحوم ، الأستاذ خالد الذكر والأثر ، مصطفى صادق الرافعي أديب عبقري متفنن ، ذو عقلية وضاءة مبدعة ، موهبة قوية صافية خصبة وتميزت بانقادها بالأحاسيس المشبوبة ، والنوازع الطامحة ، والأخيلة الجياشة السيالة ... وتفردت بقدرتها التصويرية الطيعة ، التي تسمو بنا إلى أجواء رقيقة ندية ... تنسى فيها عالمنا المادي التطاحن ... وتقبل عليها بكليتنا مشغوفين مأسورين فتسبح في فيض علوي زاخر ، ملىء بالأنغام العذاب ، مفعم بأطايب نسمات الجنات

نشأ الرافعي في بيئة دينية نقية ؛ تولت إغناء مصر وقضاءها زمناً طويلاً عادلا ... فنقه النور الإلهي الغامر الباهر ، واستوعب العربية وآدابها ، وفنون أساليبها ... وتعلق قلبه بسيرة سيد المرسلين ، فأخذت براعته تنوع الفصول الرائعة ، والآيات البينات في حبه وتقديره صلى الله عليه وسلم ... فكانت لروعتها وسموها كأنها تنزيل من التنزيل ، أو نفس من نور الذكر الحكيم ؛ كما يقول (سعد) العظيم . وظل يعمل ويكافح في سبيل إعلاء كلمة الشرق ، وتوجيه الأجيال إلى خير منهج يضمن له العز والفخار ويعيد له تراثه المضيع ، ويحقق له نسبه الرائع المختلط ، وكان في كل ذلك (واحد الآحاد في فنه)(١) . وكما يحمل رسالته التي أخذ على عاتقه أمر تنفيذها وتحقيقها — وإن كانت المنايا قد عرقلت الكثير من أمنياته — بقوله : (أنا لا أهبا بالمظاهر والأعراض التي يأتي بها يوم وينسخها يوم آخر ، والقبلة التي أتجه إليها في الأدب ، إنما هي النفس الشرقية في دينها وفضائلها ؛ فلا أكتب إلا ما يمسها حية ويزيد في حياتها وسمو غايتها ، ويمكن لفضائلها وخصائصها في الحياة ... ولذا لا أمس من الآداب كلها إلا نواحيها العليا ؛ ثم إنه يخيل إلي دائماً أني رسول لغوي بعثت للدفاع عن القرآن ولغته وبيانه) .

فالرافعي يعد من جهابذة أعلام الإسلام الخالدين إذ كان أعلم أهل عصره وأبرعهم في تبيان فضائل القرآن ، التي تتفق مع كل زمان ، وتساير كل تطور ... كان يبذل جهد الجبارة لبعث الثقافة العربية النقية الجيدة ، وإبراز محاسن (الجملة القرآنية) الناصعة الرائعة المعجزة . كل ذلك بأسلوب وصين مكين ، وعبارة مشرقة مونقة ، ولفظ فخم جزل منتق ... يكسو معاني أرقتا النجوم والشمس حية ! وجلت صدأ الأذهان وأثارتها ، وفجرت ينابيع الرحمة والحنان ، والإيمان والعرفان ، في صحراء القلوب الجدبة ! فأضاف إلى العربية كنوزاً نفيسة من الآداب الرفيعة ، والمآثر الجليلة ... الباقية على الدهر ما بقي الدهر ، بل هي أبقى على الدهر من الدهر ! ؟ فأنت إذا ما حاولت أن تستوعب تلك المآثر وتحتويها في لب لبك ، سوف تجد نفسك أمام بحر عجيب لجب ، واسع عميق ، يحوي كل نفيس من غالي الدرر واللآلئ ، أو قل يحوي ما هو أغلى من ذلك وأنفس ؟ ! فالدرر النضيدة ، واللآلئ الثمينة تتفق مع غرره الفريدة البديعة في جميع المزايا ؛ من حيث النضرة والنفاسة ، وجمال السبك وفنية الصياغة . إلا أن الدرر واللآلئ تنقصها تلك الروح الشهية البهية ، التي تترقرق حياة خلال منطقه السامق السديد المحكم ! . وأنت إذا ما بحثت في تلك المؤلفات ألفيت بحوثاً شائقة رائقة ، وإنشاء وصفياً حكيماً في الأدب وتاريخه وسموه وعبقرياته .

وأول مؤلفاته ديوانان من براعم الشعر وعيونه .. هما : ديوان الرافعي (في ثلاثة أجزاء) ، وديوان النظرات ... وفي شعر الرافعي يقول حافظ :

أراك — وأنت نبت اليوم — تمشي ... بشـــعرك فوق هام الأولينا
وأوتيتَ النبوة في المعالي ... وما دانيتَ حـــد الأربعينا
فزين تاج الآســة بعد ساعي ... كما زانت فـــرائده الجبينا
وهذا الصولجان فكن حريصاً ... على ملك القريض وكن أمينا
فحسبك أن مُعاصِريك (ابن هانئ) ... وأنك قد فـــدوت له قرينا

(١) هذه الجملة لأستاذنا الجهبذ الزيات في نعيه الرافعي رحمه الله .

ونذكر بعد ذلك من آثاره أخطرها شأناً وأعزها مقاماً في عالم الأدب المعاصر ؛ ونعني به كتاب (تاريخ آداب العرب) بأجزائه الثلاثة المنوعة — الذي تجلت لنا فيه شخصية الرافعي الشاب النابغة ، والمؤرخ العالم المحقق الثقة ، الذي بنيف عمره عن الثلاثين ! ونترك أمر الحكم على هذا الكتاب الجامع ، بعد أن فرغ الكرام الناقدون من هذا الأمر — فليرجع إليه من شاء أن يستق الأدب عذباً فراتاً سائغاً ، من موارده النميرة المصفاة .

ثم كتابه (حديث القمر) وله أثر عظيم في تكوين الأسلوب الإنشائي لكثير من أدبائنا ومتأدبينا المعاصرين —

ثم كتبه (رسائل الأحزان) و (السحاب الأحمر) و (أوراق الورد) . وهي خلاصة آرائه في فلسفة الجمال والحب — وهي من أنضج الثمار لنتاج عبقرية الرجل الملهمة — وقد أحدثت تلك الكتب الثلاثة ضجة أدبية ، إذ تمخضت عن مجادلات نزيهة صادقة معتدلة قيمة — ومجادلات أخرى عنيفة عقيمة ، ساخطة متبرمة ، قاسية صغيرة ! —

وأخيراً يأتي دور كتابيه في النقد (المعركة تحت راية القرآن) و (على السفود) وفيهما تبيان لما كان بينه وبين الدكتور طه حسين ثم المرحوم عبد الله عنبر والأستاذ عباس محمود العقاد على الترتيب — ويمتازان بطابع العنف والعنفوان في أسلوبهما . إلى درجة ينكرها البعض وينفر منها ، ويتحمس لها البعض الآخر ويحبذها —

ولا يحق لي أن أخوض غمار هذا الحديث الطوى غير الشهي . هذا إلى شتيت من المقالات تدخل في عداد هذا اللون من أدب الرافعي ، بينه وبين الكاتب سلامة موسى والدكتور زكي مبارك وغيرهما — ثم مقالاته المتفرقة في الصحف والمجلات ، التي جمعها بين دفتي كتابه (وحي القلم) وهذا الكتاب بعد الصرح الشامخ في تراث العربية في العصر الحديث .

وجملة الأمر فقد امتازت أحاديثه ، رحمه الله ، بالتبحر والإفاضة والإشراق بدون إسفاف أو إضجار ، وإن كان يغرق أحياناً في السبك الفني لمعانيه وألفاظه — وبخاصة إذا تكلم في أدب الوصف والحكمة —

وللرافعي أناشيد مشهورة مشكورة — منها الوطني الملتهب شعوراً وحماسة ونبلا ، ومنها الاجتماعي التهذيبي القوي ، ومنها الشعبي الصادق الساذج الفطري

ولقد أكسب الرافعي فن القصة القصيرة بهاء ، وأبرزه في أبهج ديباجة وأروع صياغة — فشق للأقصوصة طريقاً مستقيما امتاز بخصبه وقوة حجته وأساليبه المؤثرة .

ولقد ظل الرافعي على طبيعته المطمئنة الراضية ، وفيا للأدب يقظاً على تراثه — غايته وهواه ومسعاه أن يستنقذ الشرق مما اعتراه من ألوان الفجور وأسباب الطيش والتبرج والضياع .. ومما نزل به من فساد في الأرض ، وبوار في العرض ، وعبس للعذارى — اللائي كسبن الشارع وخسرن الزوج ، وارتطمن في مهاوي الرذيلة !

ولقد انبرى الرافعي — وهو شبه وحيد في الميدان لا يسنده جاه ولا سلطان حزبي — إلى هدم تحرصات الدجاجلة المنورين ، من شياطين الآدميين الداعين إلى مسايرة مدنية زائفة ، مظهرها خلب وجوهرها كاذب .

وإن رجلا هذا شأنه ، وذاك تراثه يجب على كل رجال الدين والأدب على السواء ، أن يقوموا بدراسته واستيعابه وتدبره ؛ فيكون لهم كمشكاة زيتها لا ينفد ، ونورها لا يخبو ولا يخمد . فالرافعي حجة دينية ، ومصلح اجتماعي ، ولغوي علامة ، وفيلسوف إسلامي مفكر بعيد النور في الأدبين القديم والمعاصر

ولقد أطلت الكلام قليلا عن أدبه الديني ، لأنه عندي أعلى وأرق أدب للراحل الكريم طيب الله ثراه ؛ ولأن النفس تستريح به وتستريح إليه .. لأنه لسان القرآن الفصيح الذي جلى معانيه وبرهن على إعجازه المعجز ، وإطنابه المساق الوافي الذي لا يلحق

وختاماً أكرر ترحمي على الرافعي الذي مسح الدموع من أعين (المساكين) وسكب الدر في أفواههم — كما أشكره وهو في دار الخلد ، على اللذة العقلية التي أورثنيها خلال قيامي بدراسة آثاره — وهذه الكلمة اعتراف من بجميله ، وتقدير خالص لفضله على العرب والعربية . يرحمه الله .

أحمد مصطفى حافظ

محرر بمجلة المدينة المنورة